جريدة العمل ٢٧/٧/٥٥

الايزوتيريك
مدخل وعي الحقائق الكبرى

عندما تعجز مداركنا البشرية عن استيعاب الحقائق الكبرى، فلنتبصر بما اصبح جليا لوعينا البشري، بعد ان نتعمق بمدارك هذا الوعي، ونفكر مليا بما ادركه ونحلله التحليل العميق، فيبدأ عندئذ التمييز الدقيق يرشدنا الى استنتاجات متقدمة تمهد لنا السبيل الى المقارنة التي قد تكون متحفظة في بادىء الامر مع الحقائق الكبرى...

هنا من الممكن ان نشعر بهذه التحفظات تنتصب امامنا كالجدار المنيع الذي يصعب اختراقه، وقد نبدأ بالتراجع نادمين على هذا الوقت الذي اضعناه هباء في توصلنا الى هذه الاستنتاجات...

لكننا وفي احدى مراحل تراجعنا نشعر بقوة دفع عكسية تحاول ان تعيدنا عن هذا المسار التراجعي الى النقطة التي ابتدأنا منها.

فينشأ عندها صراع قوي بين جدار التحفظات الذي واجهنا وهذه القوة الخفية التي تدفع بنا لاختراق هذا الجدار؟!...

عندها وفي خضم هذا الصراع نبدأ بالبحث عن وسيط سلام، فيلوح في الافق خيال مسرع يقترب، ما يلبث ان يصبح بيننا، معرفا عن نفسه بانه الحياد الايجابي... عارضا علينا التوسط في هذا النزاع الدائر وواعدا باحلال السلام المنشود بحل ما... فلنفسح له المجال لنرى الى ما سيوصلنا.

يستهل الحياد مهمته بالتفكير بدوافع هذه التحفظات وتحليلها، متسائلا عن مصدرها، ولماذا بدأت خجولة ثم اخذت تتعاظم عند الوصول الى تلك الاستنتاجات؟...

انها ولا شك لم تات من فراغ، اذا ربما انها صدرت من التعاليم السائدة، والمسلم بها، ومن التقاليد المتوارثة، وطرق التنشئة الملتزمة، فهذه التعاليم الايمانية صارت مسلمات لانها نتيجة اختيار لخلاصة فلسفات تم الالتزام العام بها، وهذه التقاليد اصبحت عادات يصعب الخروج منها خوفا من استنكار المجتمع، وهذه الطرق في التنشئة اضحت مستمدة من تلك التقاليد والتعاليم الآنفة الذكر.

واذا تعمقنا في هذه التعاليم الايمانية، ومن اين استلهمت، نرى انها جاءت نتيجة سعي سابق لايجاد مرجعية يستند ويطمئن لها الوعي البشري في ذلك الزمان، وصارت التقاليد طريقة نقل لها من جيل الى جيل، فاضحت التنشئة التزاما مديدا بهذه وتلك...

ثم انتقل الحياد للتفكير بالدوافع التي حركت الوعي الحالي للوصول الى الاستنتاجات المتقدمة التي اشعلت الصراع، محللا اياها بان هذا الوعي ربما، وصل الى مرحلة شعر عندها انه اصبح مؤهلا، وبحاجة الى تاكيد اكثر عمقا ووضوحا للتعاليم السائدة، وتململا لحركة ما في سكون هذه التقاليد في سبيل تنشئة اكثر تطورا، لالتزام أمتن بتعاليم ملموسة اكثر، وتقاليد متحركة ايجابيا اكثر...

عند هذه النقطة من التفكير والتحليل، انتقل الحياد الى التمييز بين دوافع اطراف الصراع...؟ فارتسمت على محياه علامات التعجب والتساؤل عن موجبات هذا النزاع الدائر من دون اسباب واقعية، منطقية، ملزمة، اوضحها بالاستنتاج التالي:

بما ان الوعي البشري الحالي استمد تلك الاستنتاجات المتقدمة منطلقا في تفكيره وتحليله من التعاليم والتقاليد وطرق التنشئة في بحته من حركة جديدة اختلجت في كيانه تدفعه للتعمق في تلك المسلمات وتشريحها والغوص في ابعادها، فتبين له بعد مرحلة التميز الدقيق، ان تلك المسلمات ما وجدت في ذلك الزمان الغابر، الا لتحضره لتطوير تعامله معها في زمن لاحق... فهو اذا انطلق منها كنقطة ارتكاز للوصول الى استنتاجات فهم اعمق لمقصدها، على ان تصبح استنتاجاته المتقدمة هذه، مسلمات جديدة، متطورة ومهيأة لتكون نقطة ارتكاز ثانية لانطلاقة اوسع في التطور على مسار الهدف السامي، الا وهو الاكتمال بالوعي الانساني... اي ان حركته لم تات لتنقض بل لتحاول ان تكمل...

ارتاح الحياد لهذه النتيجة، فقدمها لطرفي النزاع، مبينا ان ما حصل من تحفظات تجاه حركة الوعي كان منشاه التقوقع السائد والناتج عن ذلك الخوف من اقتحام المجهول، وعن الرهبة من الارتفاع الى طبقات الوعي الاعلى، تهيبا من الضياع عن الايمان...

لان الوعي العام السائد يعتبر ان للانسان حدودا معينة عليه الالتزام بها. ولكن اذا تاملنا بتلك الدوافع التي حركت البحث والتقصي والتبحر، لشعرنا تلقائيا ان مفهوم الحدود المعينة في غير محله... فمن سمح للانسان للتوصل في السابق لما صار مسلما به الآن، لا شك اعطاه الحق في اكمال بحوثه وتطويرها لتوصلات اكثر تقدما في سبيل الوصول الى هدف ما... لا زال مجهولا لغالبية بني البشر وبات في حكم المستشف، او المعلوم للقلة من الذين خاضوا غمار البحث والتقصي، والتزموا درب الوعي مسارا مباركا للوصول بالانسان الى اكتماله الانساني الذي اراده الله له دربا قدرية في تصعده نحو الحقيقة لبلوغ الحق مصدره ومآبه... ولو ان الحكمة الالهية ارادت لهذا الانسان حدودا معينة لمنعت عنه العقل مصدر التفكير، التحليل، التميز والاستنتاج كما منعته عن باقي المخلوقات... واذا قيل ان العقل اعطي للانسان ليسير به اموره الحياتية في اوسع مجالاتها فقط لا غير لأمكننا القول ايضا ان باقي المخلوقات اعطيت هذه الامكانية، فهي تسير امورها الحياتية، ضمن احتياجاتها من مأكل ومشرب ومسكن وتناسل ونمو وطرق تفاهم فيما بينها والى آخره مما هو مرادف مجازيا لكل ما يحتاجه الانسان... ولكن العزة الالهية اعطت الانسان وحده ذلك الجزء من العقل السامي المبدع الخلاق الذي ميز به عن سائر خلائق هذا الكون... والذي صار به سيدا على مصيره ومسؤولا عن خياراته ضمن درب قدرية رسمت معالم سلوكها في فراغات لا وعيه...

بعد ان اقتنع طرفي النزاع بهذا التصور المنطقي، ساد السلام فيما بينهما وبدأت التحفظات تفسح المجال لهذا الوعي البشري الجديد، الذي لم تعد تشعر حياله بالشكوك والظنون السابقة، فانطلق واثق الخطوات، بعد ان تحرر من القيود التي حاولت عرقلته سابقا، وراح ينتقل بانسانه من افق قريب الى افق أبعد حتى صارت الآفاق له درجات تصعد على هرم ثبتت قاعدته الرباعية على ارض صلبة دليل اكتماله المادي، وراح يجاهد للوصول الى نقطة الذروة التي تكلل هامته علامة التكامل بوعيه، التكامل بانسانيته، ليتمكن منها للانطلاقة الكبرى نحو عالمه الروحي الاصيل، من حيث انبعث لاواعيا، ساعيا لبلوغ كنه وعيه الروحي الذي سيؤهله للعودة المأمولة والاندماج بالتالي في قلب الوعي الالهي...

وهكذا عندما نحرر افكارنا ومشاعرنا من القيود المصطنعة، ونطلقهما يتأملان في كل ما يقع ضمن نطاق وعينا الملموس، ويتعمقان في تحليله، يسهل علينا استشفاف ما هو غير ملموس، فندرك عندئذ عظمة العناية الالهية التي جعلت لكل الحقائق الكبرى انعكاسا ماديا يسترشد به لادراكه... و«للبحث تتمة».

طوني صباغ
«الايزوتيريك»